الدرس النحوي الأندلسي
من التقليد إلى التجديد

أ.د/ محمد زهار
د/ مصطفى بن عطية
كلية الآداب واللغات
جامعة المسيلة

تاريخ الإرسال:2019/09/28	تاريخ القبول: 2020/01/21

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الجهود الفكرية لعلماء الأندلس في مجال الدرس النحوي في إطار التعريف بتاريخ البحث النحوي وتقويمه بداية من دراسة اللغة، وقراءة النصوص وفهمها إلى مرحلة التأليف؛ الذي كانت سمته الأساس رواية الشعر، وتلقين القواعد، وتدريب اللسان على الفصاحة وحسن البيان، واكتساب الملكة اللسانية والاحتراز من الوقوع في الخطأ، والوقوف على مقاصد الدلالة. وغاية كل ذلك تيسير القواعد، وتلخيص التراث في منظومات نحوية.

وقد سجلت كتب التراجم العديد من الشخصيات الأندلسية التي كان لها الفضل في إرساء قواعد مذهب نحويّ نافس مدارس المشرق، مع الإشارة إلى النضج المنهجي في المسار العلمي، متجاوزا جهود لغويي المشرق من التقليد والإتباع إلى التجديد والإبداع.

الكلمات المفتاحية: مذهب نحويّ؛ التقليد؛ التجديد؛ الملكة اللسانية؛ الدرس النحوي.

ABSTRACT:
The present research that tries to shed light on the intellectual efforts of the scholars of Andalusia in the field of grammar lesson, comes in the context of the presentation of the history of research and evaluation of grammar from the study of the language, the reading and the comprehension of the texts until the writing characterized mainly by the recitation of the poetry, the teaching of the rules of the eloquence and the rhetoric, the acquisition of the language competence , the determination of the objectives of semantics, the synthesis of linguistic heritage in grammar poems.
Several biographical books have cited Andalusian personalities who had the merit of putting in place the rules of a grammar doctrine that competed with schools in the East.
It should be noted that the methodological maturity of the scientific process of Andalusian scholars has largely surpassed the efforts of Eastern language professionals from imitation to innovation and creation.

Key Words: Grammar Doctrine-Imitation-Innovation -Language Skills- Grammar Lesson.

مدخل:

بدأ اهتمام الأندلسيين بالدرس النحوي متأخرا عن المشرق، وذلك لبعد المسافة من جهة وانشغال الحكام الأوائل بترسيخ نظام الحكم وتوطيد ملكهم، وما أن عرفت الأندلس استقرارا في عهد بني أمية حتى ظهرت حركة ثقافية وعلميّة بدأت بدراسة علوم القرآن ومعرفة الروايات والوقوف على صحيح الدين باستيعاب الفقه وقضاياه الفكرية، ودراسة علوم العربية خاصة بعد عودة جودي بن عثمان العبسي المورورى• من المشرق ومعه كتب الكوفيين، وقد أثبت ذلك الدكتور شوقي ضيف بقوله: "وأوّل نحاة الأندلس بالمعنى الدقيق لكلمة نحويّ:

• ينظر: محمد بن الحسن الزبيدي أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص256.

جودي بن عثمان المورواري الذي رحل إلى المشرق، وتتلمذ للكسائي والفرّاء، وهو أوّل من أدخل إلى موطنه كتب الكوفيين، وأوّل من صنّف به في النحو، وما زال يدرّسه لطلابه حتى توفي سنة 198 للهجرة"[1] ثم ظهر مفرج بن مالك الذي وضع شرحا على كتاب الكسائي[2].

وهكذا بقي الفكر النحوي الكوفي يسود بلاد الأندلس حينا من الدهر إلى أن رحل إلى المشرق موسى بن محمد بن هشام المكنّى الأفشنيق المتوفى (307هـ) الذي أخذ عن الدينوري كتاب سيبويه، فدرسّه لتلاميذه حين عاد إلى قرطبة.

كما سجلت كتب التراجم رحلة محمد الرباحي الجياني إلى المشرق الذي حضر مجالس النحّاس، وأخذ عنه كتاب سيبويه أيضا، ودرّسه كذلك في جامع قرطبة بعد عودته، دون أن ننسى دور أبي علي القالي الذي حمل معه كتاب سيبويه.

وقد شهدت الأندلس في نهاية القرن الرابع الهجريّ تطورا فنيّا متميزا ونهضة فكرية في تلقين صنوف المعرفة وفنون الأدب واللغة، فبعدما ساد المذهب الكوفي ثم البصري ها هي كتب الفارسي وطرائق تحليله تبدأ في الانتشار كالحلبيات، والبغداديات والأهوازيات، والحجة، والإيضاح، وكتب ابن جنّي كالخصائص، وسرّ صناعة الإعراب وغيرها.

مظاهر تطور الفكر النحوي الأندلسي:

وظل النحاة ينهلون من مختلف المصنّفات، ويجمعون بينها متعمّقين في فهم دقائقها، واستنباط أحكامها، بالتحليل والتعليل، فبدأت تتضح معالم الدراسات

[1]- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط2، دار المعارف، القاهرة، ص288-289.

[2]- عبد الله عنان، عصر المرابطين و الموحدين في المغرب و الأندلس، ط1، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1964 ص332. وصلاح راوي، النحو العربي نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله، ط1، دار غريب، القاهرة، 2003، ص676.

النحوية، وتكتمل رؤيتها، ممّا زاد اهتمام الطلاب الذين لم تكن لهم رحلات إلى المشرق[3]، فالتفّوا حول مجالس وحلقات العلماء، منهم الشعراء كابن زَيدون، وابن خفاجة، وابن حَمْدِيس. ومنهم الأطباء كابن زهر الأشبيلي، ومنهم المؤلّفون كـ(الإفليلي(441هـ وابن عطية (542هـ) وابن العربي(543هـ)وابن حزم الظاهري (456هـ) والشنتمري (476هـ) وابن سِيدَة(485هـ)، والوليد الوقشي(489هـ) وغيرهم، رغم كثرة الفتن والصراعات بين عصرين زاهرين إلا أنّ نشاط التدريس والتأليف لم يتأثر بتلك الظروف القاسية، فظهر نحويّون منهم البطليوسي(521هـ)[4]، وابن خلصة(521هـ) وابن الباذش(528هـ) والرمّاك(541هـ) وتلميذه السُّهيلي(581هـ) وتلميذه ابن الطّراوة (528هـ)، فأعطى هؤلاء وغيرهم صورة ناصعة جسدت التطوّر الفكريّ.

ولم يكن هَمُّ النحويّ المقولات، والأحكام والقواعد فحسب، بل توسّعت مداركه إلى دراسة وشرح كتب الأدب والتعليق عليها، وعرضها في ميزان النقد، ممّا زاد من تشجيعهم، وفكّ عقدة علاقة التبعيّة للمشارقة، التي عانى منها هؤلاء طيلة عقود.

[3]-السهيلي، نتائج الفكر في النحو،تحقيق، إبراهيم البنا، ط1، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، 1984، ص10-11.

[4]- القفطي، إنباه الرواة، تحقيق، محمد أبو الفضل، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1986،59/4. والسيوطي، بغية الوعاة، ت: محمد أبو الفضل، ط2، دار الفكر، 1979، 55/2، ومحمود علي مكي، علوم القرآن في الأندلس حتى نهاية القرن السادس، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2008، ص9.

ومن مظاهر هذا التطور أيضا أنه تبيّن اتجاهان متعارضان، أحدهما يميل إلى كتاب سيبويه، والجمل، والكافي متحفظا من آراء الفارسي، وابن جني ويمثّل هذه النزعة ابن الطراوة حيث يقول: "و غَبُنَ رأيُه مَن عدَل عن التواليف المسندة، والقوانين المقيّدة كالجمل، والكافي، وكتاب سيبويه الشافي، وفرغ للإيضاح والشيرازيات والخصائص، والحلبيّات ترجمة تروق بلا جسم، إلاّ تشدّقا بالكتب وإحالة على الصحف، وإنّ هذا لهو الخسران المبين."[5] وهذا لا شكّ نقد جريء ورأي صريح له ما يمهّد له ويعضُده.

وبين نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، ازدهرت العلوم اللغوية والنحوية على وجه الخصوص في عصر شهدت الأندلس تمزقا و تشتّتا، وصراعا سياسيا شاعت فيه الاضطرابات، فاشتهرت دولة بني جهور في قرطبة (422-463هـ)، ودولة بني زيري في غرناطة(403-483هـ)[6] ودولة بني عبّاد في إشبيلية (414-484هـ) ودولة بني الأفطس في بطليوس(413-488هـ)[7].

ونسجّل في هذه الفترة جانب الأصالة التي اتصفت بها مصنّفاتهم، بتدوين ما جاء في كتب المشارقة مع الجِدّة في الطرح. ونلمس ذلك من خلال جهود ابن

[5]-ابن فرحون،الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب،تحقيق،محمد أبو النور،ط1،دار التراث،القاهرة،205/1.

[6]- ابن فرحون،الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ،207/1..

[7]- عبد الله عنان،عصر المرابطين و الموحدين في المغرب و الأندلس،ط1،لجنة التأليف والنشر،القاهرة،1964،ص332.

الأبرش (532هـ)[8]، وأبي بكر بن طاهر (580هـ)، وابن ملكون (581هـ) وابن مضاء القرطبي (592هـ) والخشني (604هـ)، و ابن خروف (609هـ)، والرّندي (616هـ). فقد أضاف هؤلاء عددا من المواقف النحوية والتخريجات غير المسبوقة؛ إذ لم يكتفوا بالنقل، بل أبدعوا في دعواتهم للتجديد والتيسير.

ويمكن تلخيص هذه المرحلة في النقاط الآتية:

-ميل العديد من التواليف التعليمية بشرح المصنّفات كالكتاب، والجمل، وفصيح ثعلب، فطغى الإطناب، وكثرة الشروحات، وكأنهم يريدون أن يجسدوا قدراتهم في التأليف كما هوا لحال عند ابن الباذش[9]، وابن خروف، والسُّهَيلي، وغيرهما...

-اتجاه بعض النحاة نحو نقد منهج النحاة الأوائل،كالذي وضعه ابن مضاء في كتابه الموسوم بـ"الرّدّ على النّحاة" قائلا: "قصدت من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه"[10]، وهو ما نقله عن شيخه ابن حزم حين قال: "وأما علم النحو فإلى مقدّمات محفوظة عن العرب، الذي تزيد معرفة تفهمهم للمعاني بلغتهم وأما العلل فيه ففاسدة

[8]-بغية الوعاة،1/557.

[9]- ابن بشكوال، الصلة، الدار المصرية للتأليف، ط2، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، 2،1966/،556 ، ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص318.

[10]- ابن مضاء، الرد على النحاة، تحقيق: شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص85.

جدّا."[11] والملاحظ أن هذا الموقف مهمّ في نظرية النحو العربي والتي نرى أن فيها من الصواب ما يجعلنا نُنصِفُ الرّجُل إذا نظرنا إليه من باب تيسير النحو في العملية التعليمية؛ فالقواعد الخاصة باللغة مبنية أساسا على ما سُمع من العرب شعرا ونثرا والذي نطقوا به سليقتهم، فهم أولى وأقدر على فهم معانيها.

-ومن جهة ثانية نسجل ما وضعه النحاة من عِلَل في فترة زمنيّة متأخّرة ضعُفت فيه الملكة اللسانية من حيث بعدها عن الاستعمال، وهو ما أشار إليه في مقام آخر قائلا: "...وكنَحْو المسائل الطوال التي أدخلها المبرّد في صدر كتابه (المقتضب في النحو)، فإنها لا ترد على أحد أبدا لا في كتاب ولا في كلام"[12]، أو ما كان من النحاة أنفسهم فابن الطراوة[13] يصنّف الإفصاح فيما وقع فيه الفارسي من الخطأ في الإيضاح.[14] ردا على ابن الباذش الذي كان معجبا بالفارسي، منتقدا (كتاب الكافي) للنحاس[15]، في حين أعجب ابن الطراوة بكتاب سيبويه، والجمل، والأصول، والمقتضب.[16]

[11]-ابن حزم، التقريب لحد المنطق و المدخل إليه،تحقيق إحسان عباس،ط1،مكتبة الحياة،بيروت،1959، ص202.

[12]-التقريب لحد المنطق، ص 104.

[13]-ابن الأبار،المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي،ط1،دار الكتاب العربي،القاهرة،1967، ص318 ، ابن بشكوال، الصلة،الدار المصرية للتأليف،ط2،الدار المصرية للتأليف،القاهرة،2،1966/- 556

[14]- ابراهيم البنا، ابن الطراوة و أثره في النحو،ط1،دار الاعتصام، القاهرة،1980.ص123.

[15]- شريف عبد الكريم النجار، ابن الباذش الغرناطي و أثره النحوي ، ص،19

[16]-ابراهيم البنا، ابن الطراوة وأثره في النحو، ص125.

و إذا كان ابن مضاء قد عني بتجريد النحو عن القول بالعامل، والعلة، والحذق، والتمارين غير العمليّة على حدّ قول إبراهيم البنا، فإنّ أبا الوليد ابن رشد (592-595هـ) قد اهتم بأمر النحاة والنحو، وما رآه منهم من غُلُوّ، واستغراق في المسائل النحوية فوضع كتابا يوحي ببعده التعليمي أسماه"الضروري في النحو"[17].

إنّ هذا السجال بين النحاة كان له الأثر الطيّب على المتعلمين، فنمّى فيهم روح النقد البنّاء، وكان هذا باديا في مصنفاتهم فقد آخذ السهيلي على تخريجات سيبويه في العديد من المسائل تناولها إبراهيم البنّا.[18]

كما علّق ابن الباذش على الزجّاجي في تعريفه للفعل الماضي والمستقبل فقال: "عرّف الزجاجي الفعل الماضي ما حسُن فيه أمس، وعرّف المستقبل بقوله: ما حسُن فيه غد: ويرى ابن الباذش أن هذا الحد غير سديد مستندا إلى لفظ سيبويه. فحدّ الزجّاجي يوجب أن يكون قولك: (قام زيد غدا) و(يقوم زيد أمس) قبيحا، والصحيح أنه مُحال كما هو رأي سيبويه. يقول سيبويه:"وأما المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره، فتقول:(أتيتك غدا) و(سآتيك أمس)[19].

[17]- نتائج الفكر، ص13.

[18]-ينظر مواطن ذلك في نتائج الفكر،مثلا:باب العامل في النعت،ص،253.231-286-387....

[19]-ابن الباذش و أثره في النحو،ص6.

وهكذا ظل نحاة الأندلس ينهلون من منابع النحو، ويتابعون ويجمعون بينها فيما يدرسون ويصنّفون، ويتعمّقون في فهم دقائق المسائل، واستنباط الأحكام، والتبحّر في فروعها، فهم لم يخرجوا عن الغاية وهي دراسة الظواهر اللغوية؛ فسجلوا بكلّ موضوعية أن الغلوّ الذي عرفه الدرس النحوي في المشرق، والتفنّن في التأويلات، خرج عن غاية الدراسة العلمية، لذا فقد اكتفوا بالتعليل الهادف خدمة للعربية، مراعين السياق الطبيعي للتطور العلمي للغة. فبدأت تظهر بوادر الانفصال عن المشارقة، والاعتماد على أنفسهم في بلورة تفكير نحويّ يقوم على مناهج تعليمية، مستدركين مسائل فاتت نحاة المشرق.[20]

من النحو العلمي إلى النحو التعليمي:

وقد وجد الأندلسيون أنفسهم أمام حقل معرفيّ وعلميّ واسع ونشاط نحوي دؤوب في القرن السابع الهجري، فنظرا للاستقرار الذي ساد الأندلس خاصة بعدما بدأت حركة التأليف تضعف في المشرق بسبب اهتمامهم بالمصنّفات الموسوعية الضخمة، والشروحات المطوّلة وتكرار ما كتبه الأوائل، فقد بادر علماء الأندلس بالإبداع، فيما يسمّى بالمنظومات النحوية، تيسيرا وتعليما، ومنهم الجاوزلي، وابن معط، وابن خروف، والشلوبين، وابن هشام الخضراوي، وابن عصفور وغيرهم.

[20]–عياد عيد الثبيتي، ابن الطراوة النحوي، ط1، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط1، السعودية، 1983، ص231. والزبيدي، ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة و البصرة، تحقيق:طارق الجنابي، ط1، عالم الكتب لبنان، 1987.

ومن الأندلس تطفو مشكلة علميّة خاض فيها النحاة تتعلّق بالاحتجاج بالحديث النبويّ الشريف؛ حيث كان ابن الضائع (680هـ) أول من أشار إلى ذلك؛ حيث أعاد للحديث النبويّ مكانته كمصدر من مصادر اللغة، وذلك لاعتماد شيخه ابن الطراوة عليه ردّا على سيبويه[21]، واستدراكا لما يكون قد فاته في المسألة.

ولا شك أن الرغبة في تجديد النحو قد انتاب الكثير من الباحثين في العصر الحديث كإبراهيم مصطفى، وشوقي ضيف ومهدي المخزومي وغيرهم انطلاقا ممّا أشار إليه السهيلي في باب الإعراب وباب ما لا ينصرف[22]. فالنحو بدأ عِلْمِيّا وانتهى تعليميّا، حاول فيه العلماء جعله سهلا طيعا على الطلاب.

المنظومات النحوية بين العلمية و التعليمية:

تمكّن نحاة الأندلس من خلال ما قدّموه للدرس النحوي أن يفرضوا مكانتهم في الساحة الثقافية والعلمية، من خلال تفردهم في العديد من القضايا النحوية، بتوجيهات واختيارات ساهمت في تسجيل رؤية متميزة دوّنتها كتب التراجم.

[21]-نتائج الفكر، المسألة رقم42،ص233-234.

[22]-عبد المنعم حرفان، التجديد و التقليد في نحو الأندلس من خلال باب ما لا ينصرف عند السهيلي و الشاطبي، عدد 19، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فاس، 1978، ص 24.

وعلى الرغم من أنها تأخرت في دراسة علوم اللغة إلا أنها استطاعت أن تبلور تيارا نحويا تفرّدت به، مما أهّلها بأن تنافس النحو المشرقي مع ما نسجله من آراء وأفكار لا تُنصِف هؤلاء النحاة، ومنهم الباحث مهدي المخزومي حيث يقول:

"ففكرة المدرسة الأندلسية في أكبر الظن كانت مستوحاة من عمل الزبيدي في طبقاته، لأنه خصص للنحويين واللغويين الأندلسيين مكانا خاصا في طبقاته بآراء البصريين،والكوفيين، فأوهم بوجود مذهب أندلسي."[23] وكذا ما أورده الباحث شعبان عوض العبيدي مؤيدا سابقيه في "أنه لا يمكن القول بوجود مذهب أندلسي في النحو العربي، لو أن بعض المحاولات التي قام بها بعض الأندلسيين، والمغاربة قدّر لها الاستقرار، من هذه المحاولات الثورة على الأصول النحوية المعروفة من قياس وتعليل،وتمارين غير عملية، كما فعل ابن مضاء في كتابه الصغير الرّدّ على النحاة".[24] و يمكن القول أن هذا التطوّر الفكري لدى ابن مضاء إنما هو جهد فرديّ كتب له الشيوع، ولكن لم يلق القبول على الرغم من تأثّر بعض المتأخّرين كمحمد عيد، وإبراهيم البنّا وغيرهما.

أما المنظومات النحوية فكانت تهدف إلى تيسير تعليم القواعد النحوية للمهتمين، موزونة ومقفّاة، لما فيها من السهولة التي تفقدها مصنفات السابقين. وصنّفت أنها لم تجنح للاختصار المخلّ الذي يؤدي إلى حذف أبواب النحو، فهو

[23]–المخزومي،الدرس النحوي في بغداد،ط2،مكتبة الخانجي،مصر،د.ت،ص181.

[24]– شعبان عوض،النحو العربي، ومناهج التحليل و التأليف ،ط3،دار المعارف،القاهرة،1886،ص،191-192،محمد طنطاوي،نشأة النحو و أشهر النحاة،ط1،دار غريب ،القاهرة،1989،ص198.

علم مَحضٌ لا يقبل أن يُنتقَص من قوانينه، وإن كانت ثمراته تقبل التطويع لتكون مستأنسة في النشاط اللغوي.[25]، كما أن المتعلمين لا يحتاجون إلى كل ما هو ثابت للتعبير عن الأغراض، لأن ذلك يدخل ضمن حقل أهل الاختصاص[26].

وقد عبّرت هذه الكتب التعليمية عن حاجيات العلم، فهي سهلة الحفظ، مع ما للشعر من أثر في النفس[27]، فقد كانت مرجعا للمدّرسين، عبّر عنها المتأخرون بالمتون[28]، فألفية ابن مالك مثلا، أو الأجرومية، أو المحاضر الشنقيطية من الشعر التعليمي، وهو لون لا يراد به التعبير عن الوجدان والعواطف الشخصية، وإنما يراد به العلم والمعرفة[29]، يتبع منهج التدرّج من العام إلى الخاص، تليها مرحلة الشرح والتمثيل، والظاهر أن هنالك تناسبا بين منهج هذه المتون والغاية منها، فالتعليم الوظيفي للقواعد النحوية يظلّ مفيدا إذا ابتعد عن سرّ العلّة وتأويل المسألة والاستطرادات، التي يقف المتعلّم متردّدا هل يهتمّ بالقاعدة البعيدة عنه أم يركّز على هذه التفريعات.[30]

[25]–عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّسي اللغة العربية،مجلة اللسانيات،جامعة الجزائر،مجلد،1973،4،ص22.

[26]–عبد الكريم،خليفة ،ابن حزم الأندلسي،ط1،دار العربية،بيروت،د.ت،ص166.

[27]–عمر فروخ،تاريخ الأدب العربي،ط5،دار العلم للملايين،بيروت،1،1984/65.

[28]–عبد العزيز عتيق،الأدب العربي في الأندلس،ط2،دار النهضة العربية،بيروت،د.ت،ص329.

[29]–شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ط5، مطبعة دار المعارف، القاهرة، 1986، ص72، وإبراهيم عبود السامري، المفيد في المدارس النحوية، ط1، دار السيرة للنشر والتوزيع، عمان، د.ت، ص123.

[30]–مصطفى غليان، ابن حزم والنحو الظاهري،مقال، مجلة الفيصل، عدد110، ماي1986، ص51.

إنّ الدرس النحوي في الأندلس قد طبع بمسحة تعليمية غايته التيسير، وتجاوز التخريجات المتسمة بالتجريد، ومحاولة تقريب القاعدة من فهم طالب العلم، ولا بد أن نشير في هذا المقام إلى موقف النحاة من العلة وأهمية القواعد التعليمية في تصويب وتصحيح مواطن اللحن. ويأتي اقتراح ابن مضاء في مقدمة المصنفات التي أشارت إلى أنّ العلة من وضع النحاة، وهي فاسدة لعدم احتكامها إلى الاستعمال، وهي مستوحاة من الأحكام الشرعية. والحقيقة أن المتكلم المحدث للأصوات ،والحروف والكلمات، وإن كان خاضعا لقوانين الصنعة النحوية فإنّ ذلك لا يمنع من أن يكون هو الفاعل على نظام مخصوص[31].

خاتمة:

والخلاصة أنّ المتون النحوية الأندلسية تهدف إلى تبسيط المعرفة النحوية من جهة، ثم تعميق البحث في الظواهر النحوية اعتمادا على المصنّفات وأمّهات الكتب من جهة ثانية.

– ومن معالم النزعة التعليمية استخدام الحوار، وهو آلية تعليمية حديثة تساهم في تقريب العلم للمبتدئين، فمصنفاتهم تعجّ بالمصطلحات التعليمية، كقولهم: ألا ترى–فانتبه–لقد بيّنت لك هذا–فاعلم....

–اليسر ومراعاة مقتضى الحال، مع التدرّج في توصيل الأفكار من العموم إلى الخصوص، حتى يدلّك على القاعدة ببعض المعلومات التي تدور حولها المسألة،

[31]– عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّسي اللغة العربية، مرجع سابق، ص 44.

والتي يحتاجها القارئ في تكوين صورة كاملة عن القاعدة المشروحة، منتهيا بقوله: وأكتفي بهذا حتى لا أطيل فيما المقام إيجازه.

-النزعة الشمولية في بسط القواعد، وذلك عن طريق السؤال والجواب.

-الدقّة في وضع عناوين المسألة؛ حيث برع الأندلسيون في اختيار عناوين واضحة سهلة المأخذ، فلم يتركوا مسألة نحوية إلا ووضعوا لها عنوانا مناسبا، مع كثرة التشقيق والتفريع للمادة العلمية، مع كثرة الإحالات، وهي نحسبها نزعة تعليمية نحو التنظيم، والتذكير، والاستقصاء، وكلّها طرائق جيّدة تعين المتعلمين على فهم المسائل وتثبيتها.

-توظيف الأصول كالقياس، والسماع في بسط المسائل النحوية وإقامة الدليل عليها.

-الاحتجاج بمصادر اللغة لتقريب القواعد، وترسيخ المفهوم[32].

كل هذه التقنيات تكرّس الأبعاد التعليمية، وهي رؤية تأسيسية تخالف في كثير من المواضع النزعة المنطقية الأرسطية، وهو السبيل الذي يحرّر اللغة من التعليل،

[32]- خالد عبد الرحيم عبد الإله، الفكر النحوي عند نحاة الأندلس، ط1، مكتبة الآداب ، القاهرة، ص483.

والتقدير[33]، ولنا في مصنّف "البسيط في شرح الجمل لابن أبي الربيع (688هـ) العودة الحميدة لفهم وتبسيط كتب الأوائل.[34]يقول عن هذا المصنف:

"ووضعت عليه تواليف عدّة منها مختصرة، ومنها ممتدة، فرأيت أن أضع كتابا مبسوطا يضمّ ما فيها، ويجمع معانيها، ويستوفيها، ولم أمرّ بلفظ مطلق إلا قيّدته، ولا ناقص إلا كمّلته، ولا مغلق إلا شرحته، ولا اعتراض إلا أزلته، ولا شاهد إلا أوضحته، ولا بيت إلا نسبته على حسب علمي، ومنتهى فهمي، وسميته البسيط".[35]

هذه صورة للحياة العلمية في بلاد الأندلس خلال القرون المتعاقبة نسجل من خلالها تطور الفكر النحوي، وجودته خلال القرون المتعاقبة وعلى الرغم من القفزة النوعية والمنهجية من التعليم والتأليف إلا أنّ كتب التاريخ تتّفق على رصد بعض النقائص ككثرة الحواشي والاستطرادات، والتكرار، واضطراب التوثيق، وهي في الحقيقة تحسب لهم لا عليهم على مرّ الأزمنة والدهور، وهي البصمة البارزة في تاريخ العرب في بلاد الأندلس. خاصة بعد سقوط بغداد، وفساد سلائقهم،

[33]–نعمان بوقرة، نحو مشروع أصيل في فكر ابن حزم، مجلة المعرفة، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ماي 1999، ص 100.

[34]–الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987، ص123.

[35]–ابن أبي الربيع، البسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق: عياد بن عيد الثبيتي،ط1،دار الغرب الإسلامي، 1986، 1/156-157، 2014. وخالد عبد الرحيم، الفكر النحوي، مرجع سابق، ص197.

وضياع مجد العرب والمسلمين، فهم غير مقلّدين ولا متّبعين، وإنما هم مجتهدون، ومبدعون بآرائهم، ومواقفهم.